عامل المشافهة في الأداء اللغوي

د. أبو بكر حسيني
جامعة ورقلـة

عندما نقرأ كثيرا من كتب النحاة والقراء، لاسيما ما تعلق منها بالظواهر الصوتية تطالعنا بين الحين والآخر عبارة طالما شغلت تفكيرنا ولفتت انتباهنا، ودفعتنا إلى التأمل فيها، وهي مسألة المشافهة في الأداء اللغوي وعلاقتها بطبيعة اللغة، وبالأخص حول ما لم تجد له الكتابة، إلى يومنا هذا، رمزا خطيا، فها هو سيبويه، بعد حديثه عن الحروف الأصول التسعة والعشرين يثنيها بالحديث عن الحروف الفروع، بقسميها المستحسنة والمستهجنة، ثم يصرح أن هذه الحروف، أي الفرعية، " لا تتبين إلا بالمشافهة" [1]، وتكلم الأخفش الأوسط عن حذف الصلة (حذف الإشباع) في هاء الكناية، فيقول : " سمعنا ذلك من العرب الفصحاء"[2] فالأمر عنده ذو طابع شفوي، ويورد ابن عصفور في الممتع مقالة الزجاجي حول وصفه لحركة الإشمام، فيقول :" وذلك لا يضبط إلا بالمشافهة "[3]، ثم يأتي الدمياطي في الإتحاف، فيتحدث عن الحركة المرومة، والحركة المختلسة ويورد المقدار الكمي للحركة فيهما، ثم يقول: "ولا يضبطه إلا المشافهة "[4]. والمحدثون، أيضا من علماء اللغة يقرون هذه الحقيقة، فعندما يتحدث عبد الصبور شاهين عن روم الحركة ومقدار الثابت فيها من الحركة البسيطة، يؤكد أن هذه الأمور لا يضبطها إلا المشافهة [5] .

هذه النصوص، وغيرها كثير في تراث النحاة والقراء، تشير –في رأينا– إلى مسألتين هامتين هما:

– إن الأمر لا يمكن وصفه بدقة تامة كما هو الحال في الصوامت (الحروف) .

– إن الكتابة إلى يومنا هذا،لا زالت عاجزة عن تلبية الكثير من متطلبات الجانب المنطوق وعلى الرغم من حداثة الكتابة،وقدم الجانب المنطوق بقدم الإنسان تبقى الكتابة تطالعنا في كل حين بالجديد حول تجسيد الأداء المنطوق،الذي يحوي كثيرا من التفاعلات النفسية،كالفرح، والغضب،والقلق،والبهجة،والعجلة، والاكتئاب وغيرها، وهي ولا شك، مصاحبة للخطاب التواصلي، بل وتدخل بشكل أساسي في تحليل دلالات هذا الخطاب.

لقد وصف لنا القدماء الحركات الممالة والمفخمة والمشمة والمشبعة والمختلسة والمرومة ... وغير ذلك من الظواهر الصوتية وكل ذلك كان وصفا نظريا ، يصعب أن نحدده بتمام الدقة لتعلقه بالمشافهة كما ذكرنا ، والجدير بالذكر أنه ليس بين أيدينا نموذج شفوي مسموع لأداء الإمالة ، أو التفخيم أو الاختلاس ... يمكننا أن نقيس عليه ، لذلك تبقى هذه الأداءات تقريبية ، نحاول أن نحاكي بها وصف القدماء.

إن ما وصل إلينا بالتواتر والسماع من أداءات النص القرآني وما حوت من مختلف التشكلات الصوتية والحركية المذكورة فيه سعة ويسر ومندوحة ، لأن الهدف من تعدد القراءات كما أورد ابن قتيبة ، هو التيسير على الأمة ، لما تميزت به لهجاتها من التباين والاختلاف.

ولا نتصور أن الصحابة الكرام ، على جلالة قدرهم ، كانوا على درجة واحدة في أدائهم للنص القرآني ، بل كان فيهم الفصيح والضعيف ، وفيهم صاحب الإمالة ، وصاحب الفتح ، ... والناس في كل زمان متفاوتون في طريقة أدائهم للخطابات الشفوية من حيث القوة والضعف ، والسرعة والبطء، وحسن التحكم في حركة اللسان داخل الفم ، وفي إحكام مقاطع الأصوات ، وخلاف ذلك ، بل إن الناس في الموضع الواحد مختلفون في أدائهم للصوت الواحد ، إذ لكل واحد منهم طريقته في الأداء ، بل الناس مختلفون في قوة حبالهم الصوتية وفي سعة نفسهم ، وغير ذلك بل وإلى أبعد من ذلك نذهب فنرى أن الإنسان الواحد لا ينطق بالصوت الواحد مرتين متماثلتين تماما لاختلاف الظروف المحيطة بالعملية الكلامية عند الأداء في كل مرة .

إن هذا التصور يقودنا إلى أن نقول : إن أداء الحركات . بشكل عام . لا سيما ما تعلق منها بالفرعية ، يختلف من ناطق لآخر ، بحسب طبيعة المتكلم ، فالحركة المختلسة عند فلان قد تكون تامة عند غيره من حيث الكمية الصوتية ، والمشبعة بالطول عندي مثلا قد تكون مشبعة بالتوسط عندك ، وهكذا ، فالمقادير الزمنية لامتداد الصوت بالحركات ترجع إلى طبيعة الإنسان ، وما ألفه في أدائه.

حاصـل القـول إن عامـل المشـافهة في نظـام الأداء اللغـوي ، وفي الحركـات الفرعيـة خصوصا ، أكثر من مهم في ضبط أي شكل من أشكال الأداء ووصفه ، فإذا حصل أي تغير في بناء الحركات القصيرة (الفتحة ، والضمة ، والكسرة)بالإشباع أو بالقصر ، أو بالتركيب النوعي بمختلف أنواعه فإن أداءها لن يكون متماثلا بين متحدث وآخر ، بل وحتى في الحركات القصيرة نفسها فيها تفاوت فيما بينها من جهة الأداء ، فالفتحة كما يصرح ابن جني[6] ومن قبله سيبويه[7] أخف من الكسرة و الضمة ، لما في هذين الأخيرين من شبه الاعتراض للهواء أثناء إصدارهما ، ثم إننا نتصور ان الكمية الصوتية ليست على قدر سواء بين جميع الحروف المتحركة بها ، فعندما نقول : كَتَبَ ، فإن الجهد المبذول لأداء فتحة الكاف يختلف عنه في أداء فتحة التاء أو الباء ، بمعنى أن الفتحة على الحروف القوية تختلف في أدائها عن الفتحة في الحروف الضعيفة ، وفي المطبقة خلاف المنفتحة ، وفي المهموسة خلاف المجهورة ، وفي المستعلية خلاف المستفلة ، وهكذا مع سائر الصفات والخصائص المميزة للأصوات ، كما أن طبيعة المتكلم وبيئته وظروفه ونفسيته لها علاقة أيضا بطريقة إصداره للحركات البسيطة ناهيك عن الحركات المركبة أو المجزوءة ...

هذا تصور عام حول عامل المشافهة في الأداءات اللغوية بحاجة إلى كثير من الإثراء في مبرراته ومحاذيره يهدف إلى إعطاء عنصر المشافهة بعدا تحليليا في طريقة تعاملنا مع الظواهر الصوتية لا سيما الحركات وبخاصة المركبة والمجزوءة التي تحتاج إلى مزيد من التأني في إنتاجها بخلاف ما ألفه المتكلمون في أدائهم للحركات البسيطة (الفتحة و الضمة و الكسرة) .

الإحالات

(1) سيبويه ، الكتاب ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ط2 ، 1988 ، 432/4.

(2) الأخفش الأوسط (سعيد بن مسعدة) ، معاني القرآن ، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد ، عالم الكتب ، بيروت ، ط1 ، 1985 ، 179/1.

(3) ابـن عصـفور ، الممتـع في التصـريف ، تحقيـق فخـر الـدين قبـاوة ، دار المعرفـة، بـيروت ، ط1 ، 1987 ، 452/2 ،453 .

(4) الدمياطي ، إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر ، وضع حواشيه الشيخ حسن مهرة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،ط1 ، 1998 ، ص135 .

(5) عبد الصبور شاهين ، أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ط1 ، 1987 ، ص374 .

(6) ابن جني ، سر صناعة الإعراب ، تحقيق حسن هنداوي ، دار القلم ، دمشق ط2 ، 1993 ، 8/1 .

(7) كتاب سيبويه ، 436/4 .